اعترافات
ارسين لوبين



« خاتم الزواج »

قبّلت ايفون دو اوريجني ابنها، وأوصته بأن يبقى عاقلاً.

« تعرف أن جدتك دو اوريجني لا تحب كثيراً الأولاد. لذلك حافظ على هدوئك لكي تظهر لها انك ولد طيّب ».

ثم خاطبت المربية :

« فرولاين، لا تنسي اعادة الولد الى البيت بعد العشاء ... السيد ما زال هنا ؟

ــ « أجل سيدتي ؛ سيدي الكونت لا يزال في حجرة عمله ».

وعندما انفردت لوحدها، اتجهت ايفون دو اوريجني نحو النافذة لتلقي نظرة على ابنها قبل ذهابه مع المربية. وما هي إلّا دقائق حتى خرج من المنزل، وبعث الى أمه قبلات في الهواء كعادته. أمّا الخادمة فلقد أمسكت بيد الفتى بطريقة غير اعتيادية، هذا ما لاحظته ايفون وتعجبت به. انحنت قليلاً، لترى فجأة رجلاً ينزل من سيارته ويقترب منه بينما

كان الفتى يعبر البولفار ـ هذا الرجل، لقد عرفته، انه برنارد، الخادم الأمين لزوجها، لقد أمسك الولد من يده، اصعده الى السيارة وكذلك المربية، ثم أعطى الأمر الى السائق بالابتعاد.

كل ذلك لم يدم أكثر من عشر ثوان.

ايفون، مرتبكة، ركضت الى غرفتها، ارتدت ثيابها واتجهت نحو الباب.

لكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح، ولم يكن هنالك من مفتاح في القفل.

بسرعة رجعت الى مخدعها.

إلّا ان باب مخدعها كان مقفلاً ايضاً.

وفجأة تراءت لها صورة زوجها، وجهه الشاحب الذي هجرته البسمة، نظرته التي فقدت كل معنى للرحمة، كل هذه الأسباب جعلتها منذ سنين تكن له كثيراً من الملامة والكراهية.

« انه هو ... انه هو ! قالت في نفسها .. لقد أخذ ولدي ... آه ! انه لشيء مرعب.

بغضب شديد، ضربت الباب برجليها تارة وبضربات

من يدها تارة اخرى، ثم قفزت نحو المدخنة حيث قرعت الجرس عدة مرات وبدون وعي.

سُمع الرنين في كل أرجاء المنزل. تجمّع كل الخدام للاستجابة لهذا الرنين. حتى المارة أيضاً استرعى انتباههم هذا الرنين، ذلك ان ايفون كانت تضغط على الجرس وهي مضطربة وغاضبة.

وفتح الباب بقوة، وأطل الكونت الذي بدا على وجهه الانزعاج وهنا شعرت ايفون بقشعريرة تسري في عروقها. تقدم حتى أصبح على مقربة منها. وبقوة جبارة حاولت أن تتحرك، لكنها لم تفلح. كانت تحاول لفظ الكلمات لكنها لم تتمكن الا من تحريك شفتيها، مصدرة أصواتاً غير متناسقة. أحسّت بالضياع. فكرة الموت راودتها فقلقت كثيراً.

توجه الكونت نحوها، وأمسكها برقبتها.

« اصمتي ... لا تصرخي ... (قال ذلك بصوت مبهَم) هذا أنفع بالنسبة لك ... »

لم تحاول الدفاع عن نفسها، لذلك حلّ الخناق عن عنقها، وسحب من جيبه قطعاً حاضرة من القماش، كل

قطعة منها بقياس مختلف. وراح يستعملها تباعاً لربط ذراعيها ثم جسمها وأخيراً مدّدها على الأريكة.

انتشر الظلام في الغرفة، فأشعل الكونت النور واتجه نحو مكتبة صغيرة حيث كان من عادة ايفون ان تحفظ رسائلها. لم يتمكن من فتحها، فعمد الى خلعها بواسطة شنكل من خشب، أخلى الجوارير من كل الأوراق، وشكل منها كومة وضعها في علبة كرتون.

ــ « مضيعة للوقت، أليس كذلك ؟ قالها بلهجة ساخرة. ليس هنالك إلا فواتير، ورسائل بلا معنى ... ولا أي دليل ضدك ... لكن هذا لا يمنع من أن أحتفظ بابني، وأقسم بالله انني لن أتركه أبداً ! »

تأهب للخروج، ثم انضم اليه الخادم برنارد عند الباب، وتحادثا بصوت خافت، لكن ايفون تمكنت من سماع كلام الخادم :

« لقد تسلمت جواب عامل الجوهري، انه رهن لاشارتي ».

أجاب الكونت :

« المسألة تؤجل الى ظهر غد. لقد اتصلت بي الوالدة

واعتذرت عن الحضور قبل هذا الوقت ».

ثم سمعت ايفون صرير مفاتيح، وصوت خطى تنزل نحو الطابق الأرضي حيث يوجد مكتب عمل زوجها.

بقيت طويلاً بلا حراك، عقلها تائه، تراودها أفكار غامضة وخاطفة تلسعها بلهيبها المحرق. تذكرت سلوك الكونت دو اوريجني غير اللائق، معاملته المذللة لها، كذلك تهديداته بالطلاق، وبدأت تدرك شيئاً فشيئاً انها وقعت ضحية مؤامرة كبيرة ؛ الخدام أُعطوا مأذونية حتى مساء غد بأمر من زوجها، كذلك المربية بمشاركة الخادم برنارد ذهبت بابنها الذي لن يعود ولن تراه أبداً !...

« ابني ! ابني !.... »

كانت غاضبة ومغتاظة، وبكل ما لديها من قوة حاولت أن تتحرّر من قيدها. لقد كلفها ذلك كثيراً من الوقت، فكان عليها حل العقدة كفاية لتتمكن من تخليص يدها وباقي جسدها المقيد.

إلّا انها كانت مأخوذة في التفكير بابنها، وما كادت تتحرّر من وثاقها حتى هرعت نحو النافذة وفي نيتها طلب النجدة من أحد المارة. في الوقت نفسه مرّ شرطي على

الرصيف. لكن هواء الليل البارد أعادها الى وعيها ففكرت بالفضيحة، بالتحقيق، بالاستجواب عن ولدها. يا الهي ! يا الهي ! ما العمل لاعادته الي ؟ ما هي سبل الهرب ؟ ربما قد يصل الكونت بغتة عند سماعه أدنى حركة. ومَنْ يدري ؟ ربما بلحظة غضب ...

كانت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها. رهبة الموت اختلطت مع تفكيرها بابنها، وبصوت مخنوق أخذت تطلب النجدة، آملة أن يساعدها أحد. بقيت مأخوذة بتأملها العميق الذي يقطعه بكاءها وتنهداتها. وبحركة ديناميكية مدت يدها نحو مكتبة صغيرة وسحبت منها بعض الكتب التي قلبتها بدون وعي، لكنها وجدت بين الأوراق بطاقة كتب عليها :

« اوراس فالمونت، العنوان : محيط الشارع الملكي ».

وعادت بها الذاكرة الى سنين مضت، ان هذا الرجل قد قال في هذا المكان بالذات :

« اذا حلت بك نكبة ما، وأحسست بحاجة للمساعدة فلا ترددي، ارسلي هذه البطاقة الى البريد، ومهما كانت العوائق ستجدينني أمامك ».

وبأية لهجة غريبة، لفظ هذه الجملة، كان يتمتع بثقة كبيرة في نفسه، وبقوة لا محدودة!

« وفجأة، وبدافع من قرار لا يُقاوَم، ومن دون استدراك النتائج، وضعت ايفون البطاقة في ظرف مختوم، ثم اقتربت من النافذة. في الخارج كان الشرطي ما يزال في موقعه. فما كان منها إلا ان قدمت الظرف، مسلّمة اياه للقدر. ربما وجد أحد المارة هذه الرسالة الضائعة، وطبعاً سيضعها في البريد.

لكنها خافت من استحالة حدوث هذا الأمر، لأنه من الجنون الافتراض ان الرسالة ستصل حتماً الى العنوان المحدد، وان الشخص الذي سيساعدها، سيكون هنا مهما تعددت المصاعب.

أحسّت ايفون بتلاشي قواها، فاتكأت على الكنبة منهوكة.

مرّ الوقت ببطء، تلك هي أمسيات الشتاء المملة، لا يقطع الصمت الرهيب سوى ضجيج بعض السيارات. كانت ايفون تشعر بحاجة ماسة الى النوم، لكن القلق والخوف يمنعانها من ذلك، فراحت تعدّ عقارب الساعة،

وكانت في نفس الوقت تسمع ضجة في بعض الطوابق، عرفت منها ان زوجها قد أنهى عشاءه ثم صعد الى مخدعه وعاد الى غرفة عمله. كل هذه الأمور بدت لها بعيدة جداً. دقّت الساعة الثانية عشرة والنصف ... وايفون لا تفكر بشيء، فقط تنتظر الأحداث التي ستحصل حيث لا يُجْدي حيالها اية مقاومة. كانت تتخيل نفسها مع ابنها، تعانقه وتقبّله. الا ان كابوساً مزعجاً أفاقها من حلمها. يريدون ابعادي عن ابني، وسلخي عنه، وهذا ما دفعها من جديد الى النحيب والبكاء.

انفتح باب الغرفة، فما كان من ايفون الا ان حاولت التفتيش عن سلاح تدافع به عن نفسها عندما يحاول الكونت ايذاءها. اندفع الباب الى الأمام، الا ان المشهد الذي رأته ايفون بدا لها كالمعجزة، فتمتمت :

« أنت !... أنت !... »

اتجه نحوها رجلاً في ريعان الشباب، نحيل القامة، أنيق، لقد عرفته، انه اوراس فالمونت.

« أنت ! » ردّدت قولها

قال لها مؤدياً التحية :

« أطلب منك العفو سيدتي، رسالتك وصلتني متأخرة ».

ــ « هل هذا معقول ! معقول أن تكون أنت !... انك تمكنتَ ... » وبدت عليه الدهشة.

« ألم أعِدْك بأني سأكون عندك بمجرد طلبك لي ؟ »

ــ أجل ... لكن ...

ــ « اذاً، ها أنا ». قال مبتسماً.

ألقى نظرة على الحبال التي نجحت ايفون في حلّها، ثم رفع رأسه، متابعاً تفتيشه.

« هذه هي اذاً الوسائل التي استُعملت ؟ انه الكونت دو أوريجني، أليس كذلك ؟... لقد فهمت بالطبع انه حبسك ... لكن الظرف ؟... آه ! من هذه النافذة ... كان عليك أن تقفليها لمزيد من الانتباه ! »

اغلق المصراعين. فجفلت ايفون.

« واذا سمعنا أحد ؟ »

ــ ليس هنالك من أحد في البيت، لقد تفقدته.

ــ لكن ...

ــ لقد خرج زوجك منذ عشر دقائق.

ــ أين هو ؟

ــ عند والدته الكونتيسة دو أوريجني.

ــ كيف تعرف كل ذلك ؟

ــ « اوه ! بسيط جداً. لقد تلقى مخابرة هاتفية، لاعلامه بمرض والدته. وكما توقعت، بما انني الشخص الذي اتصل بزوجك، فانه قد خرج لتوه، يتبعه خادمه. وبواسطة المفاتيح الخاصة دخلت الى هنا ».

كان يروي كل ذلك، بكل طبيعية، كما لو كان يخبر فرحة بدون معنى. ثم عادت ايفون وسألته باضطراب :

ــ « اذاً، ان مرض والدته ليس حقيقة ؟... في هذه الحالة، زوجي سيعود ...

ــ بدون شك، سيكتشف الكونت بعد حوالي ربع ساعة انه ضُحِك عليه.

ــ لنذهب ... لا أريد أن يعود ويراني هنا ... سألحق بابني.

ــ لحظة من فضلك !

ــ لحظة !... لكن ألا تعرف بعد انهم اختطفوه

مني ؟ انهم يأذونه ربما ؟

حاولت ايفون بكل قواها أن تنحّي فالمونت من طريقها. لكنه بكثير من اللطافة أجبرها على الجلوس، ثم قال لها بكل جدّية :

« اصغي الي، سيدتي، يجب ألا نضيع دقيقة واحدة يمكن أن تفيدنا. قبل كل شيء، تذكري هذا : لقد التقينا أربع مرات كان ذلك منذ ست سنين ... وفي اللقاء الرابع، بالتحديد وفي صالونات هذا المنزل، تكلمت معك بكثير من التأثر، فجعلتني أشعر بأن زياراتي لا تعجبك. ومنذ ذلك الوقت، ما عدت رأيتك، وبالرغم من كل شيء، لقد وضعت ثقتك بي من خلال البطاقة التي احتفظت بها، وبعد كل هذه السنين، طلبت مساعدتي. اريد منك مزيداً من الثقة. يجب أن تنفذي ما أقول لك. كما أتيت وتخطيت كل الحواجز، كذلك سأنقذك وأنقذ ابنك مهما كان الوضع ».

ان كلام اوراس فالمونت المطمئن وصوته الهادىء، خففا من اضطراب السيدة. كانت تشعر تجاهه بشيء من الراحة والحماية.

« لا تخافي، ردّد على مسمعها. ان الكونتيسة دو أوريجني تقيم في الطرف الآخر من غابة فانسارن. لنعتبر أن زوجك وجد سيارة تقوده الى هنا، فانه لن يصل قبل الساعة الثالثة والربع. والآن الساعة تشير الى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة. اقسم لك اننا سنرحل من هنا في الثالثة بالتحديد، وسنذهب لابنك. لكن لا يمكنني الذهاب قبل معرفة كل الأمور.

ــ ماذا علي أن أفعل ؟

ــ الاجابة بكل وضوح. لدينا عشرون دقيقة، هذا كاف، ولكن ليس بكثير.

ــ اسألني اذاً.

ــ أتعتقدين ان الكونت كانت لديه مشاريع اجرامية ؟

ــ كلا.

ــ اذاً الامر يتعلق بابنك فقط ؟

ــ أجل.

ــ ويخطفه، لأنه يريد الطلاق، للزواج بامرأة اخرى، واحدة من صديقاتك القدامى والتي طردتها من بيتك ؟...

اوه ! أتوسل اليك أجيبي دون لفّ ودوران. أعرض عليك هنا وقائع معروفة ومشهورة، أمّا تردّدك، ووساويسك فيجب أن تزول حالاً، لأن الأمر يتعلق بابنك. وهكذا اذاً يريد زوجك الاقتران بامرأة اخرى ؟

ــ أجل.

ــ هذه السيدة لا تملك مالاً. ومن جهة اخرى زوجك الذي بذّر أمواله، ليس أمامه من وسائل سوى الراتب الذي تقدمه له والدته الكونتيسة دو أوريجني، وفوائد الثروة الكبيرة التي ورثها ابنك عن خاليه الاثنين. هذه هي الثروة التي يطمع بها زوجك، لذلك فاذا عُهد بالولد اليه، يمكنه بكل سهولة الاستيلاء عليها. وهنالك وسيلة واحدة : الطلاق. لا اخطىء اليس كذلك ؟

ــ كلا.

ــ والسبب الذي كان يمنعه من تحقيق مآربه، هو رفضك ؟

ــ نعم، كذلك رأي والدته الكونتيسة دو أوريجني التي تعتبر ان الطلاق مخالف للدين، ولن توافق إلّا في حال ...

ــ في حال ماذا ؟:..

ــ « عندما يتمكنون من الاثبات أن سلوكي غير لائق ».

وهنا رفع فالمونت كتفيه.

« لا يستطيع أي شيء تجاهك أو تجاه ابنك، من الناحية القانونية، كذلك من ناحية مصالحه، فهو يصطدم بحاجز أكبر من أن يتجاوزه، وهو فضيلة امرأة شريفة. لكن مع هذا فجأة يخوض الصراع من جديد ».

ــ الى ماذا ترمي بقولك ؟

ــ أريد القول ان رجلاً كالكونت، بالرغم من تأكده ان مغامرته هذه غير مضمونة النتائج، فهو يخوضها، وهذا يظهر انه يتسلح بأسلحة قوية.

ــ أية أسلحة ؟

ــ « هذا ما أجهله. لكنها موجودة ... لولا ذلك لما باشر باختطاف ابنك ».

بدت ايفون يائسة.

« هذا مروع ... لا أعرف ما قد يكون قام به، أو تخيَّله ».

ــ فتّشي جيداً ... تذكري ... خذي مثلاً من هذه المكتبة، فلقد خلعها، ألم يجد فيها أي دليل يدينك ؟

ــ ولا أي دليل.

ــ وفي أحاديثه معك، في تهديداته، ألم يذكر شيئاً دفعك الى البحث ؟

ــ أبداً.

ــ لكن .. لكن .. من المفروض وجود شيء ما.

ثم تابع كلامه.

« أليس للكونت صديق حميم ... يرتاح اليه ويخبره أسراره ؟ »

ــ كلا.

ــ ألم يزره أمس أحد ؟

ــ لم يأت أحد.

ــ كان وحيداً عندما قيّدك وسجنك ؟

ــ في ذلك الوقت، نعم.

ــ لكن، وبعد ذلك ؟

ــ بعدها لحق الخادم به بالقرب من الباب، وسمعتهما يتكلمان عن عامل الجوهري ...

ـ هذا كل شيء ؟

ـ وأيضاً سمعتهما يتحدثان عن شيء سيحدث غداً، أي اليوم بعد الظهر، لأن الكونتيسة دو أوريجني لا يمكنها المجيء قبل هذا الوقت ».

فكر فالمونت قليلاً :

ـ « هل هذا الحديث له معنى يفيد مشاريع زوجك ؟ »

ـ لا أرى فيه شيئاً ...

ـ أين مجوهراتك ؟

ـ لقد باعها زوجي.

ـ ألم يترك لك شيئاً واحداً ؟

ـ كلا.

ـ حتى ولا خاتم ؟

ـ كلا. وهنا مدّت له يدها لتريه انها لا تحمل سوى محبس عادي.

ـ هل هو محبس زواجك ؟

ـ « أجل ... محبسي ... »

توقفت قليلاً، مرتبكة، لاحظ فالمونت احمرار وجهها، ثم

سمعها تقول :

ـ « أيُعْقل ؟... لكن لا ... لا. انه لا يعلم ... »

أسرع فالمونت لسؤالها، لكن ايفون بقيت صامتة، بدون حراك. في النهاية أجابت بصوت يكاد يسمع :

« انه ليس محبس زواجي. لقد مرّ وقت طويل على تلك الحادثة، فلقد سقط مني في المدخنة الموجودة في غرفتي، وبالرغم من التفتيش، لم أعثر عليه. وبدون أن أكشف ذلك لأحد سارعت الى شراء محبس آخر ... الذي هو الآن في يدي ».

ـ هل المحبس الأصلي يحمل تاريخ زواجك ؟

ـ أجل ... الثالث والعشرون من شهر اكتوبر.

ـ والثاني ؟

ـ لا يحمل أي تاريخ.

أحسّ بأنها متردّدة قليلاً ومضطربة، وبانها في الواقع لم تكن تحاول اخفاء ذلك.

« أتوسل اليك، لا تخفي عني شيئاً ... رأيت المسافة الكبيرة التي قطعناها خلال دقائق بقليل من المنطق وبرودة

الأعصاب. لنتابع اذاً، انني أرجو منك ذلك.

ــ هل أنت متأكد، ان المتابعة ستفيد ؟...

ــ أنا أكيد أن أي حدث له أهميته ونحن قد أوشكنا الوصول الى الهدف. لكن يجب أن نسرع، الوقت يسبقنا.

ــ اني لا أخفي شيئاً. حدث ذلك في الفترة الأكثر تعاسة وخطراً في حياتي. منهانة في بيتي، أمام الناس، كنت محاطة، بالتكاريم والتجارب، ككل امرأة هجرها زوجها. وهنا تذكرت ... قبل زواجي، أحبني رجل، لكن من ناحيتي اعتبرت ان حبه غير معقول، وبعد ذلك مات. فحفرت اسمه على المحبس، ووضعته في يدي كما يوضع الطلسم. لم يكن في قلبي أي حب بما انني متزوجة. أمّا في قرارة نفسي، فلقد بقي ذلك الحب ذكرى، حلماً مفقوداً، شعوراً جميلاً يحميني ... »

عبّرت عمّا تريد بهدوء تام، ولم يشك فالمونت ابداً بأنها لم تقل الحقيقة الواضحة. وباضطراب ظاهر قالت :

« أتعتقد بأن زوجي ؟... »

أمسك بيدها، متأملاً المحبس :

« اللغز هنا »، ان زوجك يعلم بقصة التبديل هذه.

بعد الظهر ستأتي والدته. وأمام الاثباتات، سيجبرك على خلع المحبس، وبهذه الطريقة يحصل في نفس الوقت على اقتناع والدته والطلاق، بما ان في يديه الدليل الذي يبحث عنه.

ــ لقد ضعت، لقد ضعت !

ــ بالعكس. لقد أنقذت نفسك ! أعطيني هذا الخاتم ... وسيجد زوجك خاتماً آخر، سأحاول توصيله اليك قبل الظهر، ويحمل تاريخ الثالث والعشرين من اكتوبر. وهكذا ...

انقطع عن الحديث فجأة. فلقد وجد ايفون شاحبة الوجه

ــ « ماذا هنالك ؟... أرجوك ... »

ساد الجو نوبة من اليأس المجنون.

« هنالك ... هنالك انني ضائعة ! لا أقدر نزع هذا المحبس من يدي ! لقد أصبح ضيقاً !... أتفهمني ؟ في البدء لم يكن لذلك من أهمية ... أمّا الآن ... فهو الدليل ... الادانة ... آه ! ما هذه الدوامة ! »

حاولت بكل قواها حتى كادت تجرح يدها ولكن

عبثاً. المحبس بقي متشبثاً في اصبعها وكأنه قطعة منه. آه ! صرخت ايفون، متأثرة بفكرة اخافتها ... اني أتذكر الآن، في الليلة الماضية ... حلمت كابوساً مزعجاً ... تراءى لي فيه ان احداً ما دخل الى غرفتي وأمسك يدي. لم أكن أستطيع النهوض ... كان هو ! كان هو ! لقد خدّرني، أنا متأكدة ... كان ينظر الى المحبس ... وبعد قليل، سينتزعه من يدي أمام والدته ... آه ! الآن فهمت كل شيء ... ذلك العامل الجوهري ... هو نفسه الذي سينزعه من يدي حتى لو كلف ذلك قطع يدي ... أرأيت ... لقد انتهيت ... »

وضعت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء، وفي وسط الصمت انتبهت ايفون الى ان الساعة دقّت مرة ثم اخرى.

« ها هو ! سيأتي الآن ... لقد أمست الثالثة ... هيا بنا من هنا ...

ــ لن تذهبي.

ــ ابني ... أريد رؤيته، اعادته الي ...

ــ هل تعرفين اين هو على الأقل ؟

ـــ أريد الذهاب من هنا !

ـــ لن تذهبي !... انه لضرب من الجنون ».

شدّها من معصمها. حاولت الافلات، لكنها لم تفلح فلقد عمد فالمونت الى الهجوم الفجائي ليضعف من دفاعها، ونجح في النهاية باعادتها الى الكنبة، وبدون انتباه، قيّدها ثانية من يدها، وساقيها.

« أجل، انه لضرب من الجنون ! مَنْ كان أنجدك ؟ مَنْ كان فتح لك هذا الباب ؟ شريك ؟ ثم لماذا الهرب ؟ بذلك يعني انك وافقت على الطلاق ... ومَنْ يدري في الختام ما الذي سيجري ؟.. يجب البقاء هنا ».

« اني خائفة ... خائفة جداً ... هذا المحبس يحرقني في أعماقي ... اكسرْه ... اكسرْه ... خذه بعيداً ... لكي لا يجده احد !...

ـــ واذا لم يجدوه في اصبعك، من يكون الذي كسره ؟ دائماً يبقى الشريك ... كلا، يجب مواجهة هذا الصراع، صدقيني ... بما ان كل شيء سأرتبه أنا ... بامكاني حتى مهاجمة الكونتيسة دو أوريجني لتأخير المقابلة ... اطمئني ... بعد الظهر سينتزعون من اصبعك خاتم

الزواج ... اقسم لك ... وابنك سيعاد اليك ... »

سيطرت على ايفون هواجس كثيرة، حتى أصبحت تتخيل بنفسها العوائق الممكن حدوثها.

فتّش الغرفة بكاملها ليتأكد من عدم وجود أي دليل يمكن الشك به. ثم توجه الى جانب ايفون وهمس لها :

ــ « فكري بابنك، ومهما يحدث، لا تخافي ... اني أحرسك ».

سمعته يفتح ثم يغلق باب الغرفة، ومن ثم الباب الرئيسي. في الثالثة والنصف، توقفت سيارة أمام المنزل.

فُتح الباب الرئيسي من جديد، وبسرعة تحضّرت ايفون للموقف فرأت زوجها يدخل بسرعة، يتفقدها، ثم يمسك بالخاتم، وعند هذا الحد فقدت ايفون وعيها ...

عندما استيقظت كان نور الشمس يلفّ أرجاء الغرفة، وأحسّت للوهلة الأولى ان القيود قد حُلّت عن جسمها. لكنها ما ان حركت رأسها حتى رأت الى جانبها زوجها.

ــ « ابني ... أريد ابني ... »

ردّ عليها بصوت تفوح منه السخرية :

ــ « ابننا في مكان أمين. في هذا الوقت الأمر يتعلق

بك وليس به. نحن نجلس بدون شك للمرة الأخيرة سوياً، وأريد تنبيهك الى ان التوضيح الذي سيحدث أمام والدتي هو خطير جداً. ألا ترين أية عوائق ؟ »

حاولت ايفون اخفاء اضطرابها وأجابت :

ـ « ما من شيء يعوق ذلك.

ـ أيمكنني الاتصال بها لتأتي ؟

ـ أجل. اتركني لوحدي، في الانتظار. سأكون جاهزة عندما تحضر.

ـ أمي هنا.

ـ هنا ؟ صاحت ايفون، بدون وعي، لكنها تذكرت الوعد الذي قطعه لها اوراس فالمونت.

ـ أجل.

ـ وهل الآن ؟... في الحال تريد أن تأتي الى هنا ؟

ـ أجل.

ـ لماذا ؟... لم لا نؤجلها للمساء ؟... أو غداً ؟

ـ اليوم، وفي هذه اللحظة بالذات، أجابها الكونت .. لقد حصل معي خلال الليل حادث غريب لم أجد له تفسيراً : لقد ذهبت الى والدتي بعد مكالمة

هاتفية، على أساس مرضها المفاجىء. إلا انني وجدتها في أحسن حال. كان هذا التضييع حتماً بهدف ابعادي عن هنا. ولهذا ينبغي تقريب موعد المقابلة. ألا تودين أكل شيء قبل ذلك ؟

ـ كلا ... كلا.

ـ اذاً سآتي بها ».

اتجه نحو غرفة ايفون، التي كانت تلقي نظرة على الساعة. انها تشير الى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة.

« آه ! يا الهي، اني أرتجف من الخوف ».

العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ! اوراس فالمونت لن ينقذها وما من أحد في العالم يستطيع ذلك، حتى المعجزة لا يمكن أن تخفي هذا الخاتم الملصق باصبعها.

عاد الكونت وبرفقته الكونتيسة دو أوريجني، التي رجاها بالجلوس. انها امرأة جافة، قاسية الملامح، تكن لايفون مشاعر عدائية. لم تتكلف حتى التسليم عليها، مظهرة بذلك علمها بتلك الادانة.

ـ « أتعتقد، انه من غير المجدي التكلم طويلاً.

بكلمتين، ابني يعتقد ... »

ــ لا أعتقد، يا أمي، بل اؤكد. اؤكد بالقَسَم، انه منذ ثلاثة أشهر، وخلال العطلة، عثر المنجد وهو ينظف سجادة هذه الغرفة على محبس الزواج الذي أهديته لزوجتي. هذا هو المحبس، وتاريخ الثالث والعشرين من اكتوبر محفور بداخله.

ــ اذاً قالت الكونتيسة، المحبس الذي تحمله زوجتك ...

ــ « لقد أوصت به كبدل للمحبس الأصلي. وبعد استعلامات كثيرة قام بها خادمي برنارد وذلك بأمر مني، انتهى الى اكتشاف بالقرب من ضواحي باريس، الجوهري الذي صنع لها المحبس البديل. انه يتذكر جيداً، ومستعد للشهادة، بأن زبونته لم تطلب منه حفر تاريخ معين، بل اسم. وهذا الاسم لا يتذكره لكن ربما مساعده بامكانه تذكّره. بعد اعلامه اني بحاجة لخدماته، ردّ علي برسالة .. مبدياً فيها استعداده للخدمة .. وفي هذا الصباح، ذهب برنارد للمجيء به. وها هم ينتظرون في مكتبي ».

نظر الى زوجته.

« اتريدين، بملء رغبتك، اعطائي هذا الخاتم ؟ »

ثم لفظت ايفون بكل وضوح :

« تعرف جيداً، منذ الليلة التي حاولت فيها أخذه دون علمي انه لا يمكن نزعه من اصبعي ».

ــ في هذه الحالة، أيمكنني اعطاء الأمر لصعود الجوهري ؟ لديه المعدات اللازمة.

ــ « أجل، قالت ايفون بصوت ضعيف ».

لقد خضعت ايفون للأمر الواقع. تراءت لها النهاية قريبة جداً منها، الفضيحة، الطلاق، الابن الذي سيُعْهد به الى الأب بعد اصدار حكم بذلك. كانت تتقبل هذه النتائج، وهي تفكر باختطاف ابنها، والهرب سوياً الى آخر العالم، للعيش بسعادة.

قالت لها حماتها :

« لقد كنت ضعيفة جداً، إيفون ».

كادت ايفون أن تعترف للكونتيسة وتطلب منها حمايتها. لكن ربما لن تصدق بأنها بريئة ؟

وفي الحال دخل الكونت، يتبعه الخادم وسيد متأبط حقيبة في يده.

قال له الكونت :

ـ « تعرف ما يدور هنا أليس كذلك ؟ »

ـ أجل، قال العامل. قَطْع خاتم اصبح ضيقاً جداً على اصبع السيدة، هذا بسيط جداً ... فقط شكّة ابرة.

ـ وستفحص بعدئذ، اذا كان الاسم في داخل المحبس محفوراً بواسطتك ».

نظرت ايفون الى الساعة. كانت الحادية الا عشر، عندما سمعت أصواتاً في أرجاء البيت، وبالرغم منها، فان شعوراً بالأمل أنعشها. ربما نجح فالمونت ... لكن الضجيج تجدّد، فعرفت انه صادر من الخارج. انها أصوات البائعين المتجولين الذين يمرّون تحت النوافذ ثم يبتعدون.

كل شيء انتهى. لم يتمكن أوراس فالمونت من نجدتها وأدركت انه عليها التحرك بكل قواها لاعادة ابنها، لأن وعود الآخرين تذهب مع الريح.

تراجعت قليلاً. لقد رأت يد العامل الوسخة تمسك بيدها، وهذا الاتصال الشنيع أثارها.

اعتذر العامل، والانزعاج بادٍ عليه. ثم قال الكونت الى زوجته :

ـ « يجب أن تقرّري ».

عادت ومدت يدها المرتجفة، لتصبح من جديد تحت رحمة العامل الذي ابتدأ العمل. كانت ايفون تتمنى الموت، تعلقت بهذه الفكرة، ففكرت بشراء بعض السموم التي تريحها الى الأبد. انتهت العملية بسرعة. ولم يبق الا ابعاد الطرفين لاخراج الخاتم من اصبعها. وهذا ما فعله العامل. وهنا صاح الكونت، بانتصار :

« اخيراً ! سنرى ... الدليل يكمن هنا ! ونحن كلنا شهود على ذلك ... »

اختطف الخاتم بسرعة من يد العامل ونظر الى الامضاء. لكنه دهش عندما رأى ان الخاتم يحمل تاريخ زواجه من ايفون : « الثالث والعشرون من اكتوبر ».

كنا نجلس على سطيحة في مونتي كارلو

بعدما انتهت قصته، أشعل لوبين سيجارة.

فقلت له :

« والآن ؟ »

ـ والآن ماذا ؟

ـ كيف ماذا ؟ ما كانت نهاية المغامرة.

ـــ النهاية ؟ لم يكن هنالك غير ما حدث.

ـــ أنت تمزح ... هيا تكلم.

ـــ أبداً. ألا تكفيك هذه ؟ أنقذت الكونتيسة، لأن الزوج لا يتمتع بأي دليل ضدها، وبذلك أُجبر الكونت بأمر من والدته على صرف النظر عن فكرة الطلاق واعادة الطفل الى أمه. هذا كل شيء. منذ ذلك الحين، هجر زوجته، وهي الآن تعيش سعيدة بقرب ابنها البالغ من العمر السادسة عشرة.

ـــ أجل ... أجل ... لكن أريد معرفة الطريقة التي أنقذت بها الكونتيسة ؟

انفجر لوبين بالضحك.

« يا صديقي العزيز ... »

(كان لوبين يتعمد دائماً مناداتي بهذه الطريقة)

« يا صديقي العزيز، يجب وضع النقاط على الحروف. اقسم لك ان الكونتيسة لم تكن بحاجة الى توضيحات ».

ثم أخذ قطعة نقد وأطبق يده عليها.

« ماذا يوجد في هذه اليد ؟ »

ـــ قطعة نقد بقيمة خمسة فرنكات.

فتح يده. واذا بقطعة النقد غير موجودة.

ــ « أرأيت كيف كان ذلك سهلاً! العامل الجوهري يقطع بالملزمة الخاتم حيث حُفر اسم معين، لكنه يعرض واحدة اخرى حفر عليها تاريخ الثالث والعشرين من اكتوبر. انها مجرد حيلة بسيطة، لدي في الحقيبة مثل هذا الخاتم، وغيره! طبعاً! لقد عملت ستة أشهر مع بيكمان ».

ــ اذاً ... هيا تابع. من هو العامل الجوهري.

ــ انه اوراس فالمونت! انه هذا الطيب لوبين! عندما تركت الكونتيسة في الثالثة صباحاً، استغليت الدقائق القليلة الباقية قبل وصول الزوج، وفتشت حجرة عمله. وجدت على المكتب، رسالة كتبها العامل، وتشير الى عنوانه. مفتعلاً بعض التغييرات، حللت مكان العامل، وأتيت الى الموعد ومعي المحبس مقطوع ومحفور سلفاً. أما الكونت فلم يرَ المسكين إلا النار التي استعملتها قصداً لأبدو فعلاً وكأني أقطع الخاتم.

ــ « رائع » صرخت به. وأضفت، ساخراً بدوري: « لكن ألا تعتقد بأنك خُدعت أنت ايضاً ؟

— آه ! ومن خدعني ؟

— الكونتيسة.

— بماذا خدعتني ؟

— بالاسم المحفور كالطلسم ...

الرجل الذي أحبها وتألم من أجلها ...

كل هذا يبدو لي بعيد التصديق، وأتساءل اذا لم تكن يا لوبين قد وقعت في قصة حب حلوة وواقعية ... ولكن غير بريئة ».

نظر الي لوبين بطرف عينه.

« كلا، قال لي.

— وكيف علمت ذلك ؟

— لقد قالت لي الكونتيسة كل الحقيقة، مبتدئة بقصة ذلك الرجل الذي أحبته ثم مات، ولكن بقيت محتفظة بسرّ حبها في قلبها بعد الزواج، لدي على الأقل هنا الدليل بأن هذا الحب كان سامياً من كل شيء.

— وماذا عن الدليل ؟

— لقد حفر داخل الخاتم الذي قطعته بنفسي وهو لا يزال في يد الكونتيسة والذي أحمله معي الآن. ها هو

بامكانك قراءة الاسم الذي حفرته عليه ».

أعطاني الخاتم. وقرأت : « أوراس فالمونت »

ساد الصمت بيني وبين لوبين، ولمحت التأثر بادياً على وجهه. واصلت الحديث :

ـ « لماذا اخترت أن تخبرني هذه القصة ... والتي أشرت اليها دائماً أمامي ؟

ـ لماذا ؟

ثم أشار الى سيدة غاية في الجمال تمرّ من أمامنا، يرافقها شاب فتي.

رأت لوبين فألقت عليه التحية.

« انها هي، همس في اذني، انها هي ومعها ابنها.

ـ هل عرفتك ؟

ـ تعرفني دائماً، مهما كان تنكري.

ـ لكن منذ سرقة قصر تيبار مانسيل، اثبتت الشرطة هوية كل من لوبين وأوراس فالمونت.

ـ أجل.

ـ اذاً تعرف مَنْ أنت ؟

ــ أجل.

ــ وألقت التحية عليك ؟ صحت بالرغم عني.

أمسك بذراعي وقال بغضب :

« هل تعتقد انني لوبين بالنسبة لها ؟ هل تعتقد بأن أكون سارقاً، حقيراً بالنسبة لها ؟... لكن سأكون من آخر التعساء. ربما قَتَلت حتى، ولكن ستعود وتلقي علي التحية.

ــ لماذا ؟ ألأنها أحبتك ؟

ــ هيا ! هي حجة اضافية، لكي تلومني.

ــ اذاً ؟

ــ انني الرجل الذي أعاد لها ابنها ! »